الاتجاه الأيديولوجي للبطل، في رواية "ريح الجنوب " لابن هدوقه

أ/ عبد الرحمن بن يطو
جامعة المسيلـــة

قيل أن بلزاك رائد الرواية الواقعية الغربية ؛دخلت عليه زوجته ذات مرة وهو في غرفته فوجدته منكبا على مكتبه يبكي!فاستفسرت الأمر فقال لها: إن البطل قد مات؟ فقالت له: بإمكانك ألا تموته فأجاب كل أحداث الرواية أجبرتني على موته ولا بديل لي غير ذلك .ومن هنا يتبين لنا أن الأعمال السردية العظيمة الشأن تنهض على فضاء حر وتنأى بنفسها عن بطرياركية الكاتب ، حيث تتشكل الشخصيات انطلاقا من هذا الواقع أو ذاك متواشجة معه أخذا وعطاء .

ولعل رواية "ريح الجنوب"[1] لابن هدوقه قمينة بأن تدرس شخصيتها المركزية "نفيسه" التي أسند لها دور البطلة؛ والتي عاشت في اعتقادي نوعين من الاضطهاد،أحدهما: من خلال أحداث المتن الروائي اجتماعي (طبقي) جنسي، (كونها أنثى)، بيئي (قساوة الطبيعة) .

ثانيهما :سطوة الكاتب نفسه على الشخصية البطلة التي استولى عليها وحل محلها وصارت مسكونة بقناعاته الفكرية الثورية الاشتراكية ...وألحق بها جملة من الأفعال لا تصدر عادة إلاّ عن المنتسب إلى النهج الاشتراكي الماركسي ، الذي اجتاحت تياراته الجزائر المستقلة وبعض البلدان العربية في أواخر القرن الماضي ، فتبنت كثير من النخب العربية هذا المشروع الطموح في نصوصهم الأدبية ؛ التي وعدت الشعوب العربية بواقع وردي لكن حركة التاريخ أثبتت عكس ذلك ،وانطلاقا من هذا النص الشاهد نحاول استكناه تجارب وحقائق تاريخية عاشها المثقف الجزائري بقلم الكاتب نفسه ممثلا في شخصية "نفيسة" للوقوف على مؤشرات الخطاب الأيديولوجي في صراعه مع الواقع وعقلياته الريفية وهذا برصد أقوالها ومواقفها المبثوثة في ثنايا النص في سياق (ثق بالقصة ولا تثق بالقاص).

[1] ريح الجنوب ، عبد الحميد بن هدوقه ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، د.ت

غير أن نفيسة وجدت نفسها وهي تتحرك في سياقها الروائي مكبلة بقيود الكاتب المؤدلجة يفكر نيابة عنها ويتحدث من خلالها، واجتهد ابن هدوقه في تأطير هذه الشخصية المشحونة بإرادته؛ إذ لا يجد المتلقي الإيجابي نفسه إلا منخرطا معها ومتحيزا لها، لا خيار له في ذلك لأن الكاتب حصره في زاوية ضيقة لا مناص له منها.

_فهي المرأة الأنثى ،والأنثى موصولة بالضعف على الأقل في مجتمعاتنا العربية.

_مضطهدة في بيئة موبوءة بالقحط والجفاف بنوعيه الفكري و الطبيعي.

_مقاومة لفكرة الإلحاق المتمثلة في الزواج النفعي الذي خطط له والدها الإقطاعي مع زوج مفترض هو شيخ البلدية.

_تطلع البطلة إلى مدينة الجزائر كملاذ ومتنفس لها من جرائر الريف الموسوم بالتخلف والجهل.

ويضاف إلى ذلك ودون شك، التأثير النفسواجتماعي الذي مارسه الكاتب من خلال تأطيره للريف كمكان ذي ذهنية رجعية مصرة على التخلف، حفزت ابن هدوقه على تمرير خطابه الأيديولوجي عبر شخصية نفيسة الطالبة الجامعية الثائرة؛ والذي يمكن أن نتمثله في الصراع الطبقي بين المتعلم والمتخلف، والتقدمي و الرجعي ،و السطوة الذكورية على مجتمع الإناث في مشهد اصطدامي بين البرجوازية المتسلقة (ملاك الأراضي) والطبقة الكادحة (من الفلاحين والموظفين) أو ما اصطلح عليه على تسميته في أدبيات اليسار بطبقة البروليتاريا .

أ / **العنوان** : عرّفه أحد المهتمين بدراسة العنوان في العصر الحديث وهو: ليو.هــ .هوك: "مجموعة من العلامات اللسانية (...) التي يمكن أن تأتي على رأس كلّ نصّ لتحدّده وتدلّ على محتواه العام وتغري الجمهور المقصود"[1]،والعنوان جدير بأن يستفردعلى مستوى البحث والدراسة وأن تهيأ له كلّ الأدوات الإجرائية لاستنطاق طاقاته الجمالية المتوارية وراء بنيته السطحية وإخراجه عن صمته ، فالنصوص العنوانية لا تعطي بعض ما تملك إلاّ إذا أعطيتها كلّ ما تملك ،فبتضافر إبداع المنتج وكفاءة المتلقي نلامس الحقيقة الشعرية للعنوان ونستمرئ سحريتها التي تشكل في الأصل غاية ينشدها أيّ نصّ أدبيّ ، ولهذا ارتأيت أن أقف عند عنوان رواية "ريح الجنوب " حيث استهل

[1] انظر :عالم الفكر ،شعرية عنوان الساق على الساق فيما هو الفارياق ،د . محمد الهادي المطوي ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، مجلد 28 ، العدد 1 ، يوليو، سبتمبر 1999 ، ص 455

الكاتب روايته بالريح في قوله :"...كانت ريح الجنوب قد سكنت ..."واختتمها بها أيضا بقوله: "...وتحركت الريّح.." والرّيح دلالة على تمزيق السّكون وتكسير الرّتابة والرّوتين أي في بعدها الأخر: الثّورة، والجنوب تأخذ منحى اجتماعيا أكثر منه جغرافيا إذن فما هي دلالة العنوان ؟

وعنوان" ريح الجنوب" يتألف من وحدتين معجميتين:

الأولى: الرّيح ،هذه الظاهرة الطبيعية التي تتراوح بين البرودة شتاء والحرارة صيفا، غير أنّ ما تتميز الرّيح هي:استفزازها لصمت الطبيعة وتحريكها لكل ماهو ساكن،وتجري الرّيح بما لا يشتهي الغير،فهي الطّبيعة في صورتها الثّائرة الغاضبة على أشكال الاستسلام والجمود .

وجاءت لفظة "الرّيح " مذكّرة لفظا ومؤنثة معنى كقولنا" عصفت الرّيح" وهذا ممّا يدل على أنّ "نفيسه "- في مجتمعها- كانت ثائرة كالرّيح أي الأنثى التي تنتفض كالرّجال في ظلّ مجتمع الذّكور.

أمّا "الجنوب" - عندنا – هي الصّحراء القاحلة الّتي تتّسم بقساوة الحياة وشظف العيش والفقر وقد يكون من المصادفات أنّ سكّان جنوب الكرة الأرضية يمثلون فقراءها بينما العكس لسكّان الشّمال ،يضاف إلى ذلك دلالة أخرى ألصقت بالرّيح وهي "القبلي " نسبة إلى جهة القبلة فتكسب الكلمة دلالة أخرى مشحونة ببعد دينيّ فالكعبة المشرّفة تمثّل قبلة المسلمين في كلّ أنحاء المعمورة. ومنها انطلقت أكبر ثورة في تاريخ البشريّة ثورة أزاحت الصّنم وكسّرت قيد العبودية..وحرّرت الإنسان من الإنسان .

إذن ؛"الرّيح" تعني الثّورة ، و"الجنوب" الفقراء والمستضعفين ومن هنا ترتسم لنا دلالة العنوان: " ثورة الكادحين "وهذا ما يعالجه بواقعيّة تتقاطع فيها الذّاتيّة بالموضوعيّة.

ب / المتن الرّوائى: تقع رواية " ريح الجنوب " لابن هدوقه في مائتين وستين صفحة من الحجم المتوسط وموزعة أحداث القصّة على سبعة فصول كلّ فصل يسلّمنا للفصل الموالي ؛ إذ تبدأ الرّواية بعودة نفيسه الطّالبة الجامعيّة إلى قريتها لقضاء عطلة الصّيف بعد موسم من الدّراسة بالجزائر العاصمة ،وفي محيط قرويّ وظروف اجتماعيّة وبيئيّة و نفسيّة متعبة ، تصطدم الفتاة بإرادة والدها الإقطاعي والانتهازي الّذي حاول استدراج شيخ البلديّة مالك الثّوري والمناضل الملتزم لمصاهرته وعرض عليه فكرة الزّواج بابنته الوحيدة : نفيسه ،ونيّته في ذلك أن يتقرّب منه وبالتالي يضمن لنفسه حماية

ملكيّة أراضيه الشّاسعة من زحف الإصلاح الزّراعيّ وما يترتّب عنه من تأميم،غير أنّ نفيسة قاومت وبشدّة هذه الفكرة الرّجعيّة ...إلى أن خطرت ببالها أفكار وصلت بها إلى حدّ الانتحار ولكن في الأخير رست على فكرة عمليّة وهي الهروب إلى العاصمة متنكّرة في زيّ الرّجال، وفي سيرها إلى أقرب محطّة قطار؛ ظلّت الطّريق التي تنساب بين أشجار الغابة ،ومن سوء حظّها لسعها ثعبان وساءت حالتها وفشلت خطّتها ومعها انهارت أحلامها ، ولو لم ينجدها رابح راعي الغنم لكانت في عداد الأموات ،بعد أن قدّم لها الإسعافات الأوليّة في بيته المتواضع ، وأخيرا عادت إلى بيت والدها بعد أن اكتشف أمرها ودون أن تحقّق ما كانت تسعى إليه .

- البناء الأيديولوجيّ للبطلة : إنّ التحاق نفيسه بالحياة الجامعيّة الّتي كانت- آنذاك- ورشة من الأفكار المتباينة والحوارات السّاخنة بين جيل الشّباب المقبل على الجزائر المستقلّة، كما كانت فرصة للطالب لإثبات وجوده دون تميّيز بين الجنسين.فراحت الطّالبة الجديدة القادمة من الرّيف تتشبّع بأ فكار لم تعهدها من قبل وببعض القيم التي لا يؤمن بها أهل قريتها المسالمين ، بل لم تعد تنتسب إليهم في شيء ، فهي متعلّمة إلى أعلى مستويات التّعليم،وهي مرتبطة بقيم المدينة وسكّانها..وهي أيضا استجابت لرياح التّغيّير الّتي اجتاحت الجزائر في تلك الفترة والّتي اختارت النّهج الاشتراكي خطّا سياسيّا لها ؛ فروّج له في الأوساط الحيويّة كالطّلبة والمنظّمات الشّبانيّة المتطلّعة إلى مستقبل واعد ، وانطلاقا من أحداث المتن الرّوائي نحاول الوقوف على الإشارات الدّالة على الثّقافة الجريئة ذات الخلفيّة الأيديولوجية : الاشتراكية ، الماركسيّة ولكن للإنصاف نحاول أن نتعامل مع النّص في إطاره الزّمكانيّ وبشيئ من الحياديّة وأن نتّبع أقوال نفيسه وتصرّفاتها التي تترجم ميولا جديدة انتهجتها في حياتها الجامعيّة ؛ " فوراء كلّ سلوك دافع " كما يقال . ونبدأ بحديثها مع نفسها عن الزّواج حيث استطردت قائلة : " أصدقائي من الطّلبة؟ هم يريدون من الفتاة كلّ شيئ إلاّ الزّواج . "[1] فالملاحظ أنّ كلمة " أصدقائي" من المحرّمات أن تتلفّظ بها فتاة ــ حتى وهي تخاطب نفسها ــ في مجتمعنا الجزائريّ المحافظ وخاصّة إذا كان هذا المجتمع مجتمعا ريفيّا ! والملاحظة الثّانيّة أنّها تتحدّث عن نوع من الأصدقاء الذين يؤمنون بالعلاقات الموازيّة مع الجنس

[1] ريح الجنوب ، المصدر السابق ، ص 9

الآخر بدواعي التّقدميّة والتّحرّر كما أنّها استهلّت عبارتها بشيئ من الحميميّة واللّطف في قولها الّذي يتمثّل في لفظ "أصدقائي" ،

أمّا حين حاولت والدتها أن تغيّر من حالتها النّفسيّة عاتبتها قائلة : " لو كنت تصلّين يا نفيسه لما شعرت بهذا الضّيق ..." 1 إنّ عدم التزام نفيسه بالصّلاة كواجب دينيّ متأت من قناعة فكريّة وليس من إهمال عاديّ ينتاب كثير من النّاس ولعلّ هذا ما أفصحت به لاحقا في ردّ فعلها على عتاب والدتها ، وقالت في نفسها بغضب :"الصّلاة ...لا يعرفون هنا إلاّ الصّلاة والموت أمّا الحياة فهي وساوس شيطان! .."2 وحتّى تضع حدّا لهذا الموضوع راحت تجاهر بصوت عال وبصريح العبارة: "لا أصلي " 3،في وسط اجتماعيّ يمكن للإنسان ألاّ يصلّي وهذا شأن متعلّق به ولكن من غير المسموح به له أن يجاهر وبإصرار عن الإمتناع عن الصّلاة، ومدّت يدها إلى المائدة الصّغيرة قرب السّرير فأخذت كتابا كان هناك نظرت في عنوانه لحظات وقالت: "هنا لا وجود للإخوة كرامازوف "4 وتعني بذلك الكاتب الرّوسي فيدور دوستوفسكي، هذا من الكتب رغم قيمته الأدبيّة العالميّة كان يجد صدى أكثر في صفوف الطّلبة والشّباب الّدين اختاروا لأنفسهم نهجا معيّنا لأنّ دستوفسكي يعدّ -عند البعض- من المبشّرين بالثّورة الرّوسيّة، عاش في ظلّ الحكم القيصريّ درس أفكار روّاد الاشتراكيّة الأوروبيّة قبل كارل ماكس. وتضيف البطلة في نفس السّياق وبشيئ من التّحدي " فالسّموات لا تضمن شيئا "5، ويمكن أن يفسّر قولها عن عدم قناعتها بما هو ديني في حكم لغيب؛ أي أنّ الحياة ممارسة ماديّة على أرض الواقع، وفي حوار لها مع العجوز رحمه صانعة الفخّار تفصح عن موقفها من المرأة برؤية أكثر جرأة : "كأنّ المرأة مخلوق شاذّ يجب ألاّ يعامل معاملة الأسوياء... الخروج عيب... الضّحك عيب ...الحديث أمام الرّجال عيب... التّجميل عيب...عدم القيام بكرة عيب...عدم الصّلاة ...كلّ شيئ عيب..." 6 أعتقد أنّ هذا الكلام مجرّد شحنة من الغضب تحيّنت نفيسه الفرصة لتزهقها وتحرّر نفسها ولو آنيّا. وهذه

[1] المصدر السابق ، ص 12
[2] نفسه ، ص 13
[3] نفسه ، ص 13
[4] نفسه ، ص 13
[5] نفسه ، ص 13
[6] نفسه ، ص 36

المظاهر الّتي ذكرت ليس من الدّين في شيئ ؛ فالخروج و الضّحك والحديث أمام الرّجال والتّجميل ليست عيبا إذا كانت في الإطار المشرّع لها ، فالقراءات الخاطئة هي التي أساءت للدين أو التّأويلات القاصرة التي تلحق الضّرر بالأخر، وقد تكون نفيسه ضحية هذه الأفهام الضّيقة الّتي سلّطت عليها كامرأة وهي في قريتها النّائيّ، وهي ضحيّة أيضا حين تعاطت مع هذه الأفكار الوافدة والأحكام الجاهزة والدّاعية إلى التّحرّر عن القيم الدّينية ، دون أن تكلّف نفسها عناء البحث الصّحيح والعادل .

ومن الدّلالات الّتي أشار إليها الكاتب على لسان العجوز رحمه صانعة الفخّار؛ في وصف جمال نفيسة قولها : " وهذه الخصلة الكثيفة النّاعمة المرسلة على الجهة اليسرى من الصّدر." فالقرينة الّي يمكن أن نقف عندها هي لفظ " اليسرى " فاليسار في التّصنيف الأيديولوجيّ محسوب على الاتجاه الاشتراكي الماركسيّ ؛ وهي إشارة متوارية وغير بريئة صدرت من الكاتب ، وفي موقع آخر تتحدّث متذمّرة : " الدّين أيضا له كلمة في الملبس عليها أن تلبس(المرأة)أثوابا لا تسمح للنور بملامسة جزء من ساقيها أو ذراعيها أو صدرها ..." وهذا انتقاد صريح للباس الشّرعيّ الذي صمّمه الإسلام للمرأة ، والذي أصبح يتعارض مع أفكارها الجديدة التي آمنت بها كسلوك يوميّ تتّسم به شخصيتها المتفتّحة على هذه الأيديولوجيّة العابرة للمكان ، ولم تعد تتماس مع قيمنا العربيّة الإسلاميّة المتجذّرة في حياتنا الثّقافيّة والاجتماعيّة. وفي سياق آخر تقول : "فلا فرع هنا للمنظمة النّسائيّة ولا لشبيبة الحزب ولا لغيرهما ..." [1] هذه المؤسّسات وغيرها كانت تتولّى آنذاك تأطير المناضلين وفق المبادئ الإشتراكيّة وبرعاية من الدّولة ،ولمّا أرادت وصف أمّ رابح راعي الغنم قالت عنها : "... فتصورتها تشبه إلى حدّ بعيد إحدى بطلات قصص دستوفسكي.."[2] أي ولع البطلة بأعمال هذا الكاتب الّذي عرف الاشتراكيّة قبل ماركس إذن فهما معا ينتميان إلى نهج فكريّ واحد . ثمّ ما لبثت أن عادت ثانية لتفصح عن موقفها من الميراث في الشّريعة الإسلاميّة قائلة : "... هذه المرأة الّتي في الإرث لها نصف حظّ الرّجل وفي الحياة لاحظّ لها معه مطلقا "[3] ولا تقف عند هذا الحدّ بل تحاول تعميم ظلم الدّين لها كامرأة وتضيف له القوانين الوضعيّة المنحازة للذّكور؛ في

[1] نفسه ، ص 88

[2] نفسه ، ص 174

[3] نفسه ، ص 202

قولها: "...ثمّ إنّ هذه المرأة لم تعطها القوانين السّماويّة والوضعيّة حقّها كاملا." 1 إذن فهي تنطلق دائما في حكمها من ممارسات واقعيّة جائرة ضدّ المرأة لتبرّر موقفها من الدّين، وكأنّ الدّين الحقيقي موجود في سلوك النّاس ومعاملاتهم وليس كتابا منزّها. ولعلّ هذه الشّواهد القوليّة والفعليّة الصّادرة عن البطلة وبتوقيعها ؛ وفي أكثر من موقف كفيلة بأن ترسم لنا انطباعا يمكّننا من مقاربة انتمائها الأيديولوجيّ وبدون تحفّظ ، يعتقد أصحابه أنّه يناصر المستضعفين و الفقراء في المجتمع ، وهذا ما آمنت به البطلة وجاهرت به دون خوف أو تردّد في وسط محفوف بالمتاعب ، وقد يكون هذا التّحريض متأت بإيعاز من قناعات الكاتب نفسه ، الّذي عاش طوال حياته مناضلا وفيّا لمبادئه الّتي تدعو إلى قيم العدل والمساواة بين النّاس في إطار المبادئ الاشتراكيّة، حتى ولو استدعي الأمر تسخير أبطال روايته لتحقيق هذا الغرض كما هو الحال في شخصيّة نفيسه في " ريح الجنوب " ، ونحن عندما نقرأ هذه الرّواية لـــ : عبد الحميد بن هدوقه؛ الكاتب الجزائريّ الملتزم ، نفخر بهذا الإنجاز الأدبيّ الكبير الّذي يعالج الواقع الجزائري بدلالاته الاجتماعيّة والسّياسيّة والثّقافيّة في الحقبة الموالية لسنوات الاستقلال وما صاحبها من تحوّلات جذريّة مسّت البنية التّحتية للمجتمع آنذاك .

هي الآن مرحلة من تاريخنا، وتجربة عاشها شعبنا بسلبيّاتها وإيجابيّاتها؛ لا يمكـــن أن نتجاوزها أو نغضّ الطّرف عنها، ولكن فقط أن نتعامل معهـــا فـــي حيّزهـــا الزّمـــانيّ والمكانيّ بقراءة واعية وغير منحازة.

[1] المرجع السابق ، ص 203